

الكنيسة ودورها في السياسة الاستعمارية 1905-1830م

The Church and its role in colonial policy 1830-1905 AD

كـهـ الدكتور: موهوبي عبد العزيز

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله



تاريخ الإرسال -	تاريخ القبول -	تاريخ النشر -
2025/06/13	2025/06/19	2025/07/05



الملخص -	- Summary:
نحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على دور الكنيسة في تكريس السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر منذ عام 1830 الى غاية صدور قانون فصل الدين عن الدولة 1905م، وقد كان للكنيسة دور مهم في الاحتلال الفرنسي- بهدف نشر المسيحية والقضاء على الهوية الإسلامية للجزائر وتلقت الدعم الكبير من طرف سلطات الاحتلال العسكرية والمدنية.	In this study, we attempt to shed light on the role of the Church in perpetuating French colonial policy in Algeria from 1830 until the enactment of the law separating religion from the state in 1905. The Church played an important role in the French occupation with the aim of spreading Christianity and eradicating the Islamic identity of Algeria, and received considerable support from the military and civil occupation authorities.

- Keywords:	- الكلمات المفتاحية:
Colonial policy; Lavigerie; Settlement; Integration; Algeria.	السياسة الاستعمارية؛ لافيغري؛ الاستيطان؛ الدمج؛ الجزائر.

- مقدمة

يرى معظم الباحثين في تاريخ الجزائر أنّ الاستعمار الفرنسي للجزائر كان لسببين؛ يتمثل السبب الأول في أطماع فرنسا في خيرات الجزائر، والتي كانت تنظر إليها على أساس أنّها ميراث لا صاحب له، أما السبب الثاني فيتمثل في الأحقاد المثقلة بالضغائن الدينية القديمة والمحملة بالكراهية للعقيدة الإسلامية، وقد تجلّى ذلك في وقوف الكنيسة بجانب الحملات التي كانت فرنسا تشنها كلّ مرة على الجزائر خلال العهد العثماني.

فالكنيسة التي توقف نشاطها في القرن الثامن عشر بسبب أحداث الثورة الفرنسية، عادت لتظهر من جديد في القرن التاسع عشر من خلال تزايد نشاط الحركات التنصيرية بفرنسا وخارجها، ولت لعب فيما بعد دورها البارز في مشروعات غزو الجزائر، وسنحاول من خلال بحثنا هذا إبراز العلاقة التي كانت تجمع رجال الدين المسيحيين بالإدارة الاستعمارية في الجزائر، وكيف وظفت الإدارة الاستعمارية المؤسسة الدينية في سياستها الاستعمارية، وما هو الدور الذي لعبته الكنيسة في تكريس هذه السياسة؟

1/: رجال الكنيسة والإدارة الاستعمارية

1-1 الكنيسة في ظل السلطة العسكرية

اتسمت العلاقات بين رجال الدين والإدارة الاستعمارية بنوع من التذبذب وعدم الاستقرار، وذلك حسب الظروف السياسية التي تمر

بها الدولة الفرنسية بين فترة وأخرى، فالحكم كان في بداية الاحتلال ملكيا، ثم إمبراطوريا، ثم أضحي جمهوريا، هذا من جهة ومن جهة أخرى إلى طباع الحكام العامين، الذين يعينون لتسيير شؤون المستعمرة (الجزائر) فمنهم من ساند وناصر الحركة التبشيرية، ومنهم من عارض لاختلاف نواياهم التنصيرية. وسنركز في مقالنا هذا على الحكام العامين للجزائر⁽¹⁾ وعلاقتهم بالمسؤولين عن المؤسسة الكنسية في الجزائر، في ظل السلطة العسكرية ثم في ظل السلطة المدنية.

1-1 الكنيسة في ظل السلطة العسكرية

كانت للكنيسة الكاثوليكية في الجزائر بدايات مؤلمة⁽²⁾، ففي الفترة الممتدة من 1830 إلى 1867، حيث فرضت سلطات الاحتلال قيودها على المنصرين، ومنعتهم من النشاطات التنصيرية أيا كان شكلها، وتعود أسباب ذلك إلى⁽³⁾:

1- تعهد الفرنسيين باحترام الدين الإسلامي في البلاد⁽⁴⁾، حتى وإن نقضوا ذلك بتحويلهم المساجد إلى كنائس أو ثكنات، واستيلائهم على الأوقاف الإسلامية.

2- تخوف الإدارة الاستعمارية من إثارة مشاعر المسلمين، حيث عبّر وزير الحربية بباريس عن هذا التخوف عندما كتب إلى الماريشال "فالي" يحذره من عملية التنصير لأنها ستلهب العواطف الدينية للمسلمين، وخاصة في الوقت الذي ما زال فيه جهاد الأمير عبد القادر متواصلا.⁽⁵⁾

3- تخوف بعض العسكريين من رجال الدين، حيث تلمسوا فيهم عودة سيطرة الكنيسة على الشؤون السياسية.⁽⁶⁾

هذا فيما يتعلق بالتنصير، أما فيما يهم شؤون الأوروبيين في الجزائر، فإنّ المنصرين تلقوا الدعم والحماية من طرف سلطات الاحتلال، فالجنرال بيجو (Bugeaud) كان من المدافعين الأشداء عن

رجال جمعية الجزويت (Jesuites) في الجزائر، وكان ملجأ اليتامى الأوروبيين الذي يديره في "بن عكنون" موضع عناية خاصة به ففي حالة السلم يرسل الجنود إليه لمساعدة القساوسة في فلاحه الأرض، وفي حالة الحرب يبعث إلى الملجأ نصيبا من الغنائم (خيول ونعاج)⁽⁷⁾ وكان يشجع هذه الجمعية بشكل واضح حيث ذهب بنفسه صحة جماعة من الأطفال المسلمين إلى ملجأ "بن عكنون" وسلمهم للأب بريمو (Brumeault) قائلا: "حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، فإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار".⁽⁸⁾

ولست جمعية "الجزويت" فقط هي من نالت الحظ من الحماية والدعم، فقد قدم بيجو دعمه لجمعية "Trappistes" في أسطاوالي حيث كاتبهم قائلا: «لكم الحق أن تعتمدوا على الدعم الذي يسعدني حقا أن أقدمه من أجل أن يستقر إخوان لكم في الجزائر، إن الاستعمار في نظري لا يمكنه أن ينجح إلا عن طريق جمعيات منظمة تنظيمها عسكريا، فإنه يوجد بين الراهب والجندي علاقات متعددة، إنهما معرضان للانضباط الصارم ومتعودان على الصبر والطاقة، ويعمل كل منهما لصالح الجماعة، وتوجههما إرادة واحدة لهذا كله، فمساعدتي وحمايتي لا تنقصكم أبدا». ⁽⁹⁾

2-1: بؤادر الخلاف بين الكنيسة والمؤسسة العسكرية

لقد تكاثرت عدد الجمعيات التنصيرية في الجزائر، بعدما أصبحت لها مؤسسة دينية رسمية والمتمثلة في الأسقفية؛ وقد صارت هذه الأخيرة تنافس المؤسسة العسكرية، وتثير لها مشكلات في تعاملها مع الجزائريين، إلى درجة أن "بيجو" صار يتأسف لتنصيبها، ولوجود المنصرين الكاثوليك، الذين كانوا يمارسون نشاطهم بحماس مبالغ فيه، بحيث يثير تصرفهم هذا تعصبا دينيا لدى الجزائريين.⁽¹⁰⁾ ويثير غضب بعض العسكريين ويتعارض مع سياسة "بيجو".

إنّ الخلاف الحاصل بين الكنيسة والسلطة؛ الذي أثاره "دوبوش" عندما راسل الأمير عبد القادر، وتمخض عن هذه المراسلات إطلاق سراح العشرات من الأسرى من الطرفين، هذا العمل رفع من ثقة دوبوش، وأكسبه قوة معنوية وسياسية، مما أثار غضب بعض العسكريين، وكادوا يقدمونه هو ومن معه إلى المحاكمة العسكرية، لولا تدخل بيجو (Bugeaud) لصالحه وإنقاذه⁽¹¹⁾، رغم أنّ هذا الأمر كان يتعارض مع سياسة "بيجو" الراضية لأي مفاوضة مع الأمير عبد القادر.

أ/: الصراع بين "ماك ماهون" و"لافيجري"

من الشخصيات العسكرية التي حاولت كبح نشاط الجمعيات التنصيرية الحاكم العام "ماك ماهون (Mac Mahon) فقد تزامن حكمه للجزائر مع تعيين المطران "لافيجري" على رأس أسقفية الجزائر، ومن المفارقات التي حدثت بهذا الشأن، أنّ الذين رشحوه ندموا على ذلك، "فماك ماهون" هو الذي اقترح على نابليون الثالث تعيين لافيجري أسقفا للجزائر، لكن غير رأيه فيما بعد لما علم بنوايا الرجل التنصيرية، إلا أنّ "لافيجري" بذل المستحيل للحفاظ على منصبه رغم إغرائه بمناصب أخرى.⁽¹²⁾

وهكذا ساءت العلاقة بين الحاكم العام والمطران، لكن لافيجري ليس بالرجل الذي يتراجع عن مخططاته، فقد اتصل بالإمبراطور نابليون الثالث بتاريخ 12 سبتمبر 1867، يعرض عليه مشروعه التنصيري، المتمثل في إنشاء مراكز تنصيرية في منطقة القبائل، وأعلمه أنّه لن يقيمها إلاّ حيث يريدّها أهل المنطقة، فصادق الإمبراطور عليه، وطلب من "ماك ماهون" أن يبت في الأمر، لكن "ماك ماهون" اعترض على ذلك ورفض إقامة مثل هاته المراكز⁽¹³⁾، بحجة أنّ هذا المشروع التنصيري سيزيد في اتساع الهوة بين الأهالي والسلطة.⁽¹⁴⁾

لم يقف الخلاف عند هذا الحد بل قام "ماك ماهون" بأكثر من ذلك، إذ راح يرأس الإمبراطور نابليون الثالث حول نويا لافيغري التي أصبحت تهدد مصالح فرنسا، لأنّ دعايته الدينية تثير الجزائريين، وكذا ادعائه بأنّ له الفضل في إنقاذ الناس من المجاعة، أدى إلى الحظ من دور المكاتب العربية والإدارة، وفي المقابل نجد اتهام لافيغري إدارة "ماك ماهون" بأنّها تخفي الحقيقة عن نابليون، وأنّ ادعاء "ماك ماهون" باطل في قضية إثارة مشاعر العرب ضد الإدارة، إذ أنّ العرب لم تعد لديهم القوة للثورة، ويبدو أنّ ردّ نابليون كان لصالح "ماك ماهون"، وذلك من خلال تحديده لمهام لافيغري بقوله: "لديكم مهمة كبيرة يجب القيام بها أيها المطران، وهي تهذيب 200 ألف أوروبي الموجودين في الجزائر، أما بالنسبة للعرب فاتركوا للحاكم العام مهمة تلقينهم الانضباط...". رغم هذه اللفتة من الرجل الأول في الدولة الفرنسية بقي لافيغري مصمما على تنفيذ مخططاته، إذ سرعان ما جاء الإذن من نابليون إلى لافيغري لمباشرة أعماله.⁽¹⁵⁾

3-1: الكنيسة في ظل السلطة المدنية

أولا: التعاون الوثيق

لما خلف الأمير دي قيدون (De Cuedon) المارشال "ماك ماهون" كحاكم عام على الجزائر سنة 1871م، تغيرت الأوضاع السائدة من قبل تغيرا جذريا، وأثمرت مجهودات "لافيجري" في إقناع الإدارة الفرنسية في الجزائر من أجل تنصير وفرنسة الجزائريين، وبالفعل اقتنع الحاكم العام "دي قيدون" بفكرته، فهو من أنصار هاته السياسة، إذ كان مخططه يرمي إلى القضاء على التفكير العربي الإسلامي تدريجيا، ويعارض كل ما من شأنه أن يسمح بتأسيس إدارة محلية للجزائريين.⁽¹⁶⁾

ومما لا شك فيه أنّ سياسة "دي قيدون" فتحت الباب على مصراعيه للحركات التنصيرية، التي تحمّس لها الأب "لافيجري"، وانتهز الفرصة في إكمال مهمته الاستعمارية والتخريبية المتمثلة في غسل

الأدمغة، مدعما من طرف الحاكم "دي قيدون"، ولم يخف لافيجري سياسته الهادفة لمحاربة القرآن والإسلام عامة⁽¹⁷⁾، وذلك من خلال الخطاب الذي وجهه إلى الإدارة الفرنسية قائلا: «إنّه من الواجب أن نعدل عن الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي، فيجب أن لا نحصر الشعب الجزائري في حظيرة القرآن كما فعلنا ذلك في الماضي». ⁽¹⁸⁾ لم تقف اهتمامات لافيجري عند هذا الحد، فعمل على تفكيك المجتمع ليترك المجال واسعا للعمل التنصيري، فقد استطاع أن ينشر المسيحية بخطى واسعة وذلك بإنشاء مراكز إيواء اليتامى، ليقوم من خلالها بتوجيههم وفق المصلحة الفرنسية وصبغهم بالصبغة المسيحية⁽¹⁹⁾، كما أنّه أولى اهتماما خاصا بمنطقة معينة من الجزائر كانت محل أنظار العسكريين والسياسيين على حد سواء هي منطقة القبائل، وكان هذا الاختيار دون غيره لاعتبارات وتفسيرات خاطئة تبناها الأوروبيون، منها أنّ المنطقة وسكانها أكثر قابلية للاندماج لأن "إسلامهم سطحي وأعداء فطريون للعرب".

وقد صار واضحا بعد هذا التحليل، أنّ سلطة الاحتلال في عهد "دي قيدون" ناصرت المبشرين وشجعتهم في تنفيذ مخططاتهم ذات المصير المشترك، وذهبت إلى أبعد من ذلك، فوجد لافيجري في شخص "دي قيدون" الصديق والحامي في نفس الوقت، وما يدل على ما قيل ما صرح به "دي قيدون" قائلا: «قضيت عمري في حماية الإرساليات على كل بقاع الأرض، وما دمت حاكما للجزائر، لن يقال بأنّ هذه الإرساليات قد اضطهدت على أرض فرنسية». ونجده في مناسبة أخرى يخاطب مناصري السيدة الإفريقية عندما زارهم في الحراش «هناك من يعرفلكم، أما أنا فسأساندكم في أعمالكم، إنكم تؤدون مهمة فرنسا بمحاولتكم تقريب الأهالي إليكم عن طريق التعليم، والأعمال الخيرية.

ولعل قيام ثورة المقراني 1871م أدت بـ "دي قيدون" إلى التراجع بعض الشيء عن سياسته المتعنتة ضد المسلمين، حتى وإن كانت ظاهرياً، والواقع أنّ الظروف التي طرأت على الساحة هي التي أجبرته على فعل ذلك، وفي هذا الصدى نجده يكتب المطران لافيغري ناصحاً إياه بالتحلي بالبصيرة، وأخذ الحيلة والحذر في العمل التنصيري، وأنّ عمله متوقف على تقديم المساعدات والخدمات الخيرية ونّبّه في الأخير إلى تجنب إثارة مشاعر المسلمين.⁽²⁰⁾

ثانياً: الصراع بين شانزي (Chanzy) ولافيغري

لم يدم الحال كما كان عليه في السابق، فسرعان ما خلف شانزي (Chanzy) دي قيدون، الذي انتهج سياسة مغايرة عن سلفه في علاقته بالمنصرين، حتى وإن اختلفت عن سالفها في الكيفيات والوسائل، إلا أنّهما كانتا تصبان في قالب واحد هو التنصير، لكن هذه المرة بأقل ضجة، وذلك كي لا يثير تعصب المسلمين، وفي هذا الصدى نجد المحاولات المتكررة التي كان يقوم بها شانزي للتقرب من الجزائريين، وكسب ودّهم وهذا بالتظاهر بمشاركته لأفراحهم وأعيادهم الدينية، كما سمح لهم بالحج وهو سلوك ما كان ليرضي لافيغري.⁽²¹⁾

ويتبين من التحليل الظاهر لأعمال شانزي تجاه المسلمين، أنّ الرجل كان يتحلى بروح إنسانية عالية، إذ يدعو المسلمين من غير تعصب مقيت، كما لا يحمل على الأديان وفي مقدمتها الإسلام بكيل الاتهامات، ويترصّد الزلات والثغرات، فقد كانت سياسته مبنية على اختيار أفضل الأعمال التي تقرب بين النفوس، وأفضلها ولم يشأ أن يبدي ذلك حفاظاً على مشاعر المسلمين، إذ أنّ نظرة "شانزي" تشبه إلى حد كبير نظرة نيكولزن⁽²²⁾ الذي انتقد السياسة التنصيرية الكلاسيكية، واعتبرها أساءت استخدام حق التفويض الإلهي بدعوة الأمم النصرانية وغيرها إلى مملكة الرب يسوع، وذلك عن طريق الاستغلال الواسع للشعوب تحت مسميات كثيرة كالتعليم... إلخ، وهو

أسلوب يتعارض مع حرية الإنسان في الاعتقاد والحفاظ على موروته الديني والثقافي.⁽²³⁾ والحقيقة الساطعة أنّ التنصير ظل يستعمل هذه السبل غير الإنسانية وغير الحضارية، ولم يبدل في ذلك تبديلاً إلا ما كان من باب التحايل على قلوب المسلمين أو ذر الرماد في العيون.

إنّ الخلاف بين المطران "لافيجري" والحاكم العام "شانزي"، اشتدّ حينما أراد هذا الأخير فرض الرقابة على المعامل التي كانت تملكها الجمعيات التنصيرية هذا من جهة، وكذا محاولة إنشاء فرع بلدي لقريتي "سانت سيبريان" و"سانت مونيك"⁽²⁴⁾، اللتين أنشأهما "لافيجري" في العطف (الشلف) وهذا العمل ما كان ليرضي "لافيجري"، فتنفذ هذا المشروع يعني فشل مشروعه الذي بنى عليه آماله في إنجاح عمله التنصيري.⁽²⁵⁾

لم يقف الصراع عند هذا الحد، خاصة بعد أن أصبح الخلاف بين الجمعيات التنصيرية وعلى رأسها "الجزويت" والسلطة في باريس، فبظهور الفكر الليبرالي ومضاداته للكنيسة في فرنسا خلال الثمانينيات من القرن 20م، عجل في الحد من نشاط الجمعيات التنصيرية وعلى رأسها الجزويت.⁽²⁶⁾ ففي هذا الشأن نجد جول فيري (Jules Ferry)⁽²⁷⁾ يصدر مرسوماً سنة 1879م يقضي بمنع أعضاء الجمعيات التنصيرية غير المعترف بها عن ممارسة التدريس في المدارس عموماً، وخاصة المدارس "الحرّة" بوجه خاص⁽²⁸⁾، وهذا المرسوم يدخل في جملة الإجراءات لإصلاح التعليم بفرنسا⁽²⁹⁾، وفي الواقع أنّ هذا المرسوم قصد بالدرجة الأولى جمعية "الجزويت" التي أعلن عن حلها نهائياً بفرنسا، وتصفية مؤسساتها في كامل مستعمراتها.

إنّ صدور المرسوم جعل لافيغري يدرك أنّ الجمعيات التنصيرية المستقرة بالجزائر، لا بد أن تخضع لنفس القوانين والقرارات المطبقة على مثيلاتها بفرنسا، وذلك باعتبار أنّ الجزائر جزء من فرنسا في نظر سلطات الاحتلال، لكن لافيغري نجده كعادته ينجح في

مراسلاته المتكررة للسيد "فرنسيني" الذي استجاب لصيحاته وطمأنه «بأن الجمعيات التنصيرية الغير المرخص لها، والتي استقرت بالجزائر غير معنية بالقرار الصادر». ومن بين الأسباب التي أوردتها لافيغري في رسالته لـ «فرنسيني» بشأن عدم تطبيق المرسوم:

- أن الجزائر غير معنية من الناحية التشريعية.

- من الناحية السياسية: لا يمكن حل الجمعيات في الجزائر دون تطبيق الإجراءات على الجمعيات الإسلامية.⁽³⁰⁾

وهكذا يتضح مرة أخرى التواطؤ الكبير بين سلطة الاحتلال والكنيسة من خلال سياسة التمييز في تطبيق القوانين والقرارات، فجمعية "الجزويت" بقي نشاطها في الجزائر كما كان عليه حتى سنة 1903، وتمثل هذه السنة بداية فصل الدين عن الدولة، حيث تعرضت جمعية "الجزويت" لغلق مدارسها ومصادرة ممتلكاتها في كل من عنابة، قسنطينة، بسكرة.⁽³¹⁾

وقد صار واضحا بعد استحضار مثل هذه المواقف للعسكريين أو السياسيين سواء كانوا مؤيدين أو رافضين للمشروع التنصيري، إلا أنهم متفقون على غرض واحد هو محاربة الإسلام، ويخفي هذا التواطؤ من ورائه أكثر من معنى، فهو من جهة يوضح بشكل جلي نوايا الفرنسيين جميعا سواء كانوا دينيين أو غير دينيين من هذا الاحتلال، الذي كان في الأول يقصد به "على حد زعمهم تمدين الشعب الجزائري" ليكشف فيما بعد عن حقيقته الصليبية، ومن جهة ثانية يبين وجود العلاقة الوثيدة والمتكاملة بين العسكريين والدينيين عندما يتعلق الأمر بضرب الإسلام.⁽³²⁾

2- الكنيسة وسياسة الإدماج

كانت السياسة الفرنسية في الجزائر واضحة المعالم منذ البداية، حيث أنها كانت ترمي إلى محو الشخصية الجزائرية ومقوماتها العربية

الإسلامية وإذابتها في المجتمع الفرنسي، عن طريق منهاج يربط بين "ثلاث محاور وأهداف أساسية هي الفرنسية والتنصير وأخيرا الإدماج".⁽³³⁾ وهذه المحاور الثلاث متشابكة ومتكاملة فيما بينها، فلا يمكن للإدارة الفرنسية الاستعمارية أن تجعل الجزائر أرضا فرنسية إلا عن طريق فرنستها، والقضاء على الثقافة العربية فيها، وجعل الثقافة الفرنسية محلها، ولا يتسنى لها ذلك إلا إذا اعتمدت على عنصر التنصير وتمسيح الجزائريين ودمجهم في المجتمع الفرنسي.

فبتاريخ 1841م بادر "الماريشال سولت" بتعيين لجنة من الخبراء لبحث وسائل الاستعمار بواسطة الجماعات الدينية، وترأس هذه اللجنة النائب الكاثوليكي "دوكورسيل" الذي كان متحمسا لهذا النوع من الاستعمار، وقامت اللجنة بدراسة مختلف جوانب الموضوع وبقيت في الجزائر ثلاثة أشهر، وقدمت تقريرها النهائي الذي سلمه "دوكورسيل" إلى وزير التربية والتعليم، ومما جاء فيه: "لا يمكن للجزائر أن تكون فرنسية إلا إذا أصبحت مسيحية".

ولا يخفى على الباحثين أنه كان للجانب الديني دور هام⁽³⁴⁾ في سياسة الإدماج، وهذا ما سوف نوضحه حول ما يربط الإدارة الاستعمارية بالكنيسة، وكيف أنّ هذه الأخيرة وُظفت من طرف الأولى في هذه القضية (الإدماج)، من خلال نشاطها الكنسي التنصيري الذي انحصر تحت لواء التعليم المسيحي والأعمال الخيرية الأخرى كالتطبيب وتربية اليتامى... إلخ عن طريق جمعياتها التنصيرية التي بدورها فتحت مراكز تنصيرية لتنفيذ غرضها تحت غطاء الأعمال الخيرية. لذا ارتأينا أن نسلط الضوء على نوعين من النشاطات التنصيرية، والمتمثلين في المدارس التنصيرية والأعمال الخيرية.

2-1: المدارس التبشيرية

سنتطرق في البداية الى نظرة فرنسا الاستعمارية لقضية التعليم في سياسة الإدماج، لأنها استنتجت أنّ قضية إخضاع الأهالي بالقوة

واتباعها لسياسة الترهيب لا يساعدها على تنفيذ مشاريعها في الجزائر لتحقيق النتائج التي ترجوها، فلا بد عليها من أن تستعمل سياسة الترغيب لتحقيق الإدماج وجعل الجزائر فرنسية. والكلام عن الإدماج يصعب فصله عن المدرسة الفرنسية في الجزائر والهيمنة الاستعمارية، والثقافة الغربية والاحتكار الإمبريالي والرأسمالية الاستعمارية، وما يترتب عن ذلك من نتائج، روحيا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا.⁽³⁵⁾

ولهذا بدأت الإدارة الفرنسية في التفكير لخلق ما يسمى بـ «المدارس العربية الفرنسية أو عدد من المدارس الأهلية (الخاصة بالجزائريين فقط)»⁽³⁶⁾، تتبنى نظام تعليمي فرنسي.

وفي هذا الإطار صرح، يوم 06 أوت 1850 الجنرال شرام وزير الحربية في باريس: "أنّ الظروف الحالية وبعد حرب دامت 17 سنة، فإنه يتعين على فرنسا القيام برسالتها الحضارية، بإرساء قواعد التعليم الفرنسي في الجزائر".⁽³⁷⁾ وقد تبنت الإدارة الاستعمارية هذه الفكرة ودعمتها بإنشائها لعدة مدارس أهلية في العديد من المدن الجزائرية.

ومن جهة أخرى كانت الإدارة الاستعمارية تسعى لتشجيع وتدعيم الجمعيات التنصيرية لإقامة مدارس دينية، والتي كانت ترى فيها وسيلة أخرى لتحقيق سياستها الادماجية، لأنّ تحقيق الادمماج من طرف المنصرين في الجزائر يؤدي إلى خنق كل ثورة على المستعمر يمكن أن تنشب في المستقبل. وفي إطار هذه السياسة أقام المنصرون مراكز لتكوين "الملقنين للديانة المسيحية" (Catéchistes)⁽³⁸⁾ من أجل استخدامهم في عدة أغراض تنصيرية، ومن بينها التدريس في المدارس التنصيرية، لتنصير الأطفال الجزائريين.

ولقد نشطت العديد من الجمعيات التنصيرية في هذا المجال من هذه الجمعيات نذكر: جمعية "الجزويت" التي عرف أعضاؤها بإدارتهم لمدرسة تابعة للبلدية، وفي سنة 1844 وصلوا إلى وهران، حيث أسسوا فيها كوليجا ضم حوالي 1500 تلميذ، كما أسسوا كوليجا

آخر بالجزائر العاصمة. وكذلك الحال بالنسبة للجمعيات التنصيرية التي استقدمت خلال الفترة الممتدة بين 1845-1866⁽³⁹⁾، مثل "أخوة المدارس المسيحية" الذين اهتموا بالتعليم الديني ابتداء من 1854.⁽⁴⁰⁾

وبعد سقوط نابليون في 1870 الذي تعاطف هو الآخر مع المنصرين تولى المدنيون السلطة في الجزائر وراحوا يتبنون سياسة تنصيرية وتبشيرية منظمة ورسمية ضد سكان الجزائر، بتأسيسهم للمدارس الدينية⁽⁴¹⁾، مثل مدارس للرهبان التي أنشأها لافيجري.

ولم تكن السلطات تقبل بالتسامح النسبي الذي حظي به التعليم القرآني قبل 1870، وخاصة في عهد الحاكم دو قيدون (De Gueydon). فقد عمل على مؤازرة الكنيسة ونشاطها التنصيري، والعمل على إحلال المسيحية مكان الإسلام في المجتمع الجزائري فعزز سبل المنصرين ونشطت تحت رعايته، وفي المقابل شن هجوما على الإسلام والجنس العربي بشكل عام وعمل على تقييد حرية تنقل زعماء الطرق الدينية⁽⁴²⁾

وإذا رجعنا إلى العلاقة بين الكنيسة والإدارة الاستعمارية في ظل السلطة المدنية، نجد أنّ هناك توفقا كبيرا بين الطرفين يتجلى ذلك من خلال الدعم الذي كان يتلقاه الأسقف لافيجري من قبل الحاكم العام في الجزائر دو قيدون.

فقام لافيجري بإنشاء الملاجئ والمدارس الدينية لتربية وتنشئة الأطفال الجزائريين على التعاليم المسيحية. واقتصر تعليم الأطفال على المبادئ الأولى من قراءة وحساب ونشر الوطنية الفرنسية.

وقد كتب الحاكم العام دو قيدون في 22 ماي 1874 إلى الأسقف "لافيجري" طالبا منه أن ينقل نشاطه التنصيري إلى منطقة القبائل قائلا: "تمنيت أن تمتد تجربة القريتين المسيحيتين بالعطاف إلى منطقة القبائل".

ومن خلال عرضنا لمراسلة الحاكم العام للأسقف "لافيجري" يتبين لنا مدى اهتمام الإدارة الفرنسية الاستعمارية بمنطقة القبائل، واعتقادها أنه يمكن إحداث شرخ وسط المجتمع الجزائري انطلاقاً من هذه المنطقة.

بدأت منطقة القبائل تعرف حركة تبشيرية تنصيرية كبيرة منذ سنة 1873⁽⁴³⁾، ففي منطقة فور ناسيونال (Fort National) وجماعة صهاريج بمنطقة القبائل، أسس اليسوعيون المدارس الدينية لتنصير الجزائريين، ونشط الإخوة المسيحيون في تأسيس المدارس الحرة لتعويض ما فقدوه أثناء العهد الإمبراطوري الذي اهتم بتأسيس المدارس العلمانية، وفي سنة 1901 كان عدد مدارس الآباء البيض بمنطقة القبائل قد بلغ 21 مدرسة تضم 1039 تلميذاً، وفي سنة 1914 وصل عدد المنصرين إلى قبيلة أوديهية (Oudia) بمنطقة القبائل وحدها إلى ستة آباء وثمانى أخوات بيض. والبيان التالي يبين المناطق التي تأسست فيها المدارس الدينية، وتقع كلها في منطقة القبائل:

- ذراع الميزان (مختلطة) بونوح - ذكور 35 تلميذ
- ذراع الميزان (مختلطة) ابن اسماعيل - بنات 65 تلميذ
- فور ناسيونال (مختلطة) أوديهية - بنات 25 تلميذ
- فور ناسيونال (مختلطة) آيت الأربعاء - ذكور 40 تلميذ
- فور ناسيونال (مختلطة) أوديهية - ذكور 105 تلميذ
- فور ناسيونال (مختلطة) تاقمونت عزوز - ذكور 125 تلميذ
- جرجرة (مختلطة) آورير - ذكور 84 تلميذ
- جرجرة (مختلطة) أوغفن - ذكور 82 تلميذ⁽⁴⁴⁾

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى المستوى الذي كانت تتمتع به هذه المدارس لا يرتقي إلى مستوى "المدارس الفرنسية" الحكومية الخاصة

بالأوروبيين في الجزائر، أو حتى "المدارس الأهلية"⁽⁴⁵⁾ الخاصة بالأهالي، فقد كانت برامج المدارس التنصيرية أشبه ببرامج محو الأمية في مفهوم العصر الحالي، حيث لا تتعدى في محتوياتها بعض المبادئ المختصرة في النحو والصرف والحساب والجغرافيا مع التركيز بشكل أكثر على التاريخ.⁽⁴⁶⁾ وهذا ما أكد عليه لافيغري في نهاية سنة 1886م، حيث أعطى توجيهات للمنصرين بتقديم وتلقين تعليم ديني في شكل سرد تاريخي حيث قال: «سيصبحون قريبا (الأطفال المسلمين) واثقين أكثر من عقيدتنا وأسسها عندما نحسن وضعهم في تيار هذا التاريخ الذي يتلقوه من قلب تعاليمنا العقائدية».⁽⁴⁷⁾

لقد بدأت المدارس الدينية الحرة تنتشر في الجزائر لتضاف إلى المدارس الحكومية، وخاصة في بعض المناطق التي كان من الصعب تأسيس المدارس الرسمية بها، كمنطقة الصحراء⁽⁴⁸⁾. وإذا كانت الجهود الأولى للمنصرين قد تركزت في منطقة القبائل منذ السبعينيات من القرن الماضي (ق 19)، فإن المحاولات التبشيرية والتنصيرية التي تلتها بدأت في التوسع لتشمل مناطق أخرى كمنطقة الأوراس ما بين 1893 و1900، ووصلت أواخر القرن 19 إلى مناطق الصحراء، مثل مدينة "ورقلة" و"الأغواط"، إلا أنّ مجهودات المنصرين في هذه المنطقة كانت فاشلة خاصة مدينتي "غرداية" وقريفيل (Gueriville) (أولاد سيدي الشيخ) نظرا لتمسك السكان الشديد بدينهم الإسلامي، ولم يلتحق بالمدارس المسيحية إلا الأطفال اليهود في هذه المدن، والذين كانوا يتلقون بعض التعليم التربوي والمهني.⁽⁴⁹⁾

2-2: الأعمال الخيرية

لقد تطرقنا إلى التعليم التنصيري، ووضحنا كيف أنّه اعتبر كوسيلة لتنصير المجتمع الجزائري وإدماجه في المجتمع الفرنسي، ويمكن اعتبار الخدمات التعليمية المسيحية من الأعمال الخيرية، ولكننا ارتأينا أن نفصل التعليم التنصيري عن الأعمال الخيرية، لأنّه -في

نظرنا- وسيلة تنصيرية مباشرة تختلف عن الوسائل التنصيرية الأخرى مثل الاهتمام باليتامى والتطبيب، وتقديم المساعدات من أجل استمالة الجزائريين لتنصيرهم، وبالتالي فرنستهم وبهذا يتحقق إدماجهم.

فالعامل الخيري في نظرهم (المنصرين) هو بمثابة السلاح الأول، الذي بواسطته يدخل المنصرون إلى قلوب الناس، ليركوا فيها أثارا أبدية.⁽⁵⁰⁾ في حقيقة الأمر أنّ الأعمال الخيرية التنصيرية في الجزائر ظهرت قبل أن تفكر الإدارة الاستعمارية الفرنسية بتنظيم الشؤون الدينية المسيحية بإنشائها لأسقفية الجزائر، فقد وصف المؤرخون البارون "أغسطين دوفيلار" بأنه كان أول معمر بالجزائر... هبّ لتقديم فرنسا المسيحية في صورة خيرية إلى الإسلام، وقد تفتن هذا المنصر إلى أهمية الأعمال الخيرية فاستغلها في تنصير المسلمين، فقام بشراء إقطاعات من الأراضي بكل من "القبة" و"براقي" و"ابن عكنون" و"بوفاريك" بسهل متيجة، وأنشأ مركزا طبية في مارس 1835م، وسافر إلى فرنسا من أجل تحريض الناس هناك للتبرع لصالح مشاريعه الخيرية، مؤكدا لهم أنّ هذه الأعمال ستؤدي في النهاية لتنصير الجزائريين، وقد جمع التبرعات الضخمة لمشاريعه، وكان أول من آمن بأفكاره الملك "لويس فيليب" وزوجته "إميلي" اللذان تبرعا له بمبلغ 1500 فرنك، واستدعى أخته "إميلي" دوفيلار إلى الجزائر مع مجموعة من الراهبات لاستغلال المراكز والمعاهد ونشاطات التطبيب والأعمال الخيرية في نشر النصرانية.⁽⁵¹⁾

ولم تحل سنة 1838 حتى أصبحت للتنصير مؤسسة خاصة به وهي أسقفية الجزائر⁽⁵²⁾ وهنا نطرح التساؤل: كيف استخدمت المؤسسة الدينية (الأسقفية) الأعمال الخيرية كوسيلة لتنصير الأهالي الجزائريين لدمجهم في المجتمع الفرنسي؟

إنّ الأعمال الخيرية التي استخدمها المنصرون في الجزائر عديدة، وأنهم كانوا يستخدمونها للتأثير في الأهالي من أجل كسب ثقتهم كي لا

ينفروا منهم، وقد شهد "بلاسكي" أنّ رجال الكنيسة وعلى رأسهم دوبوش (Dupuch) قد أدوا خدمة كبيرة لفرنسا في الجزائر عن طريق التأثير على السكان معنويا بالعلاج والأعمال الخيرية وإعطاء المثال في النظافة والنظام وحسن المعاملة⁵³.

ومع مرور السنين أخذت هذه الأعمال الخيرية التنصيرية تتطور وتنتشر حتى وصلت إلى مناطق بعيدة نحو الجنوب الجزائري، وقد صرح لافيغري (Lavigerie) قائلاً: "إنّ الأعمال الأولى للمؤسسة كانت الملاجئ والمؤسسات الخيرية لصالح مسلمي الجزائر وقد أخذت تتطور شيئاً فشيئاً تطوراً هائلاً، واليوم المؤسسة الدينية لديها منشآت في الصحراء والقبائل"⁵⁴. وعلى العموم فإنّ المنصرين استخدموا الأعمال الخيرية كوسيلة لتنصير الجزائريين على النحو التالي:

2-3: إقامة الملاجئ

كما ذكرنا سابقاً أنّ المنصرين اهتموا ببناء الملاجئ لليتامى كعمل خيري تنصيري، قبل إنشاء الأسقفية، وبعد الإعلان عنها ازداد هذا الاهتمام لدى الأساقفة الذين تولوا رئاستها.

فقد قام ديبش (Dupuch) ببناء "40 ملجأ"⁵⁵، كانت تديرها الجمعيات التي استقدمها مثل جمعية الجزويت (الآباء اليسوعيون)⁵⁶، والتي لم يكن أعضاؤها يقيمون وزناً للتنصير الفردي، بل كانوا يسعون دائماً إلى التنصير الجماعي، ولذلك وجهوا اهتماماتهم إلى دور الأطفال والملاجئ، وعلى هذا الأساس أنشأ الأب بريمولت (Brumault) وهو من أنشط أعضاء هذه الفرقة - ملجأ ببوفاريك وآخر بين عكنون في سنة 1843⁽⁵⁷⁾، ومن بين هذه الملاجئ أيضاً نذكر ملجأ "الترابست" في اسطاوالي⁽⁵⁸⁾. كما قام الأسقف لويس بافي (L. Pavy) بالاهتمام بالإيتام، وقد وجد أنّ "دوبوش (Dupuch) مهد له الطريق لذلك، ويبدو هذا الاهتمام جلياً عندما رخص بافي لكبير المنصرين جيرار (M. Girard)

باستقبال أطفال الأهالي اليتامى، والذين وُكلوا إليه من قبل عائلات جد فقيرة للتكفل بهم في ملجأ بئر خادم.⁽⁵⁹⁾

وعند مجيء "لافيجري"، وجد أنّ الأهالي الجزائريين يعانون من أزمة صحية واقتصادية واجتماعية، فقام ببناء العديد من الملاجئ والتكفل بالعديد من الأطفال الجزائريين الأيتام، حيث صرح بنفسه في مراسلاته إلى أحد المناظرين (Séminaristes) البلجيكيين -حول مؤسسة مبشري إفريقيا- قائلا: «في سنة 1867 أتت المجاعة والطاعون كنكبتين عظيمتين غيرتا حالة الأشياء وفتحتا المجال لظهور منظورات جديدة لمبشري الإنجيل، هاتان النكبتان أودتا بحياة آلاف الضحايا، تاركتا وراءهما عددا لا يحصى من الأيتام، وقد قام الإكليروسي المسيحي (رجل الدين) باستقبالهم، وكان لهم بمثابة أب، وفي خضم هذا الاستعراض المليء بالإحسان بدأت عيون هؤلاء الأطفال بالتفتح، وقد فهموا بأنّ الإيمان الحقيقي وحده يستطيع خلق نوع من التفاني والإخلاص الذي لا مثيل له، خاصة وأنّهم كانوا ضحايا التخلي والقساوة والوحشية من طرف المسلمين.⁽⁶⁰⁾

ويبدو من خلال هذا التصريح بأنّ مخلفات تلك الفاجعة التي ألّمت بالمجتمع الجزائري كانت دعما معنويا وماديا بالنسبة للافيغري من أجل تنفيذ مخططة التنصيري.

2-4: علاج المرضى

إنّ ممارسة التطبيب في العمل التنصيري قد لا يرتبط بمكان معين أو بطبيب خاص، فالمدرسة يمكنها أن تمثل مستوصفاً والمعلم فيها يكون ممرضا.

وقد اعتبر المنصرون العلاج كوسيلة تعبر عن الأخلاق الحميدة والطيبة والرأفة التي يتمتعون بها، وهذا لجلب الأهالي نحوهم من أجل تنصيرهم، وهذا ما بينه الأسقف لافيغري (Lavigerie) حيث قال:

"لقد كسب مبشرونا ثقة الأهالي عن طريق الرأفة والشفقة بإعطاء اهتمامهم للمرضى والفقراء.⁶¹

لقد استخدم المنصرون التطبيب في الجزائر كوسيلة للتنصير بطريقتين لا تختلفان عما يقوم به المنصرون في أنحاء أخرى من العالم، وتمثلان في:

- استقدام المواطنين إلى المستشفيات التي أقاموها لهذا الغرض.

- علاج المرضى منهم والجرحى في الحوادث المختلفة في منازلهم.

2-5: تزويج الشباب الجزائري المتنصر

قام المنصرون بتقديم مساعدات للشباب من الجزائريين المتنصرين من أجل إنشاء أسر نصرانية، ولهذا الغرض قاموا بإنشاء "صندوق المهور الذي يجمع المبالغ المالية «التي يدفعها الشبان للشابات (الفتيات). وكان المعنيون بهذه المساعدات هم الأطفال الجزائريون الذين تلقوا تربية مسيحية في الملاجئ، فقد صرح "لافيجري" للمناظر (Séminaristes) البلجيكي آبي (Abbé) قائلا: «إنّ الملاجئ في الجزائر أدت إلى نشوء قرى عربية مسيحية، فقد قمنا بتزويج الشباب والشابات الذين نشؤوا في هذه الملاجئ عند بلوغهم سن النضج.⁽⁶²⁾

إنّ اهتمام المنصرين بتكوين أسر من المتنصرين الجزائريين كبير جدا، لقد أدركوا أنّ إعادة المسيحية إلى الجزائر، وغرس جذورها فيها من جديد لا يمكن أن يتم إلاّ عن طريق أبناء البلاد وذويهم، وهكذا لم يتوانوا أبدا في مساعدة الشبان المتنصرين المقبلين على الزواج، وتوفير كل وسائل المعيشة لهم.⁽⁶³⁾ وسوف يطول بنا العرض، إذا أردنا أن نستعرض كل الوسائل الخيرية التي استغلها المنصرون في تنصير الجزائريين لدمجهم وفرنستهم.

وفي نظرنا، أنّ أكبر مشروع تنصيري عرفته الجزائر كان خلال الفترة التي قضاها "الافيجري" على رأس الأسقفية في الجزائر، والسبب في ذلك هو المجاعات التي حلت بالجزائر سنة 1867 والتي فتحت الباب على مصراعيه أمام المنصرين لأداء مهامهم التنصيرية متذرعين بالأعمال الخيرية. وعلى العموم، سواء أكان عن طريق التعليم المسيحي أو عن طريق الأعمال الخيرية، فالإدماج في منظور المنصرين هو عملية إفراغ للجزائري من الداخل من خلال التخلي عن دينه الإسلامي وعن لغته العربية، وتبني دين المستعمر ولغته وعاداته.⁽⁶⁴⁾

3- الكنيسة والاستعمار الاستيطاني في الجزائر

في ظل سياسة الغزو والتوسع التي قامت بها فرنسا الاستعمارية في الجزائر، كانت سياسة الاستيطان الأوروبي محور اهتمام الإدارة الاستعمارية، ويبدو جليا الهدف الفرنسي من وراء هذه السياسة أنّه كان من أجل تلبية متطلبات التوسع في استعمار البلاد.⁽⁶⁵⁾ والاستيلاء على أراضي السكان الأصليين الجزائريين، وهو المظهر المادي الواضح للاستيطان.⁽⁶⁶⁾

ولكن إذا نظرنا للموضوع بمنظور آخر، وأردنا أن ندرج الكنيسة، أو بالأحرى المؤسسة الدينية المسيحية في الجزائر في ظل السياسة الفرنسية الاستيطانية كان لابدنا أن نطرح السؤال التالي: ما هو دور الكنيسة في العملية الاستيطانية في الجزائر؟

إنّ المتتبع لتاريخ الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وعلاقتها برجال الدين المسيحيين منذ بداية الاحتلال، يجد أنّ هناك تواطؤا كبيرا بين السلطة الاستعمارية والكنيسة، خاصة وأنّ هذه الأخيرة أضفت الصبغة القانونية للجمعيات التنصيرية للتمركز في الجزائر، وهذا لإدراكها العميق للدعم القوي الذي يمكن أن تقدمه هذه الجمعيات لها في استعمار الجزائر من كل الجوانب.⁽⁶⁷⁾

ومن الواضح أنّ الدور الذي لعبته المؤسسة الدينية المسيحية في الجزائر كان له وقع كبير في السياسة الفرنسية الاستيطانية، وأنّها قدمت خدمات كبيرة للاستعمار من خلال جمعياتها الدينية التي استقدمت إلى الجزائر، ويبدو هذا من خلال الرسالة التي وجهها الجنرال بيجو (Bugeaud) لرئيس الطائفة الدينية (Les Frères la Trappe) الإخوة لاتراب سنة 1843 حيث قال: «إنّ الخصال الحميدة والأعمال الصالحة التي اشتهرت بها طائفة الإخوة لاتراب، سوف تساعد على استمالة قلوب العرب إلينا بعدما أخضعناهم بقوة السلاح».⁽⁶⁸⁾

ولقد عملت المؤسسة الدينية بتوطيد جذور الاستعمار الاستيطاني في الجزائر من خلال اعتمادها على محورين أساسيين، وهما حيازة الأراضي والمساهمة في تشكيل المستوطنات.

3-1: حيازة الأراضي

كانت السلطات الفرنسية وفقا لسياستها الاستيطانية، تنتزع الأراضي من أصحابها الجزائريين، وتهبها للجمعيات والهيئات الدينية المسيحية.⁽⁶⁹⁾ وعلى هذا الشكل استفادت العديد من الجمعيات التنصيرية، من مساحات شاسعة من الأراضي المسلوقة من الجزائريين، ففي وهران استفادت جمعية الأخوات الثالوثيات من 60 هكتارا، وفي عنابة جمعية أخوات العقيدة المسيحية من 11 هكتارا، كما استفادت جمعية الآباء البيض من مساحات شاسعة في الحراش والعطاف.

ومن جهتها استفادت ملاجئ الأيتام التي أنشأتها هذه الجمعيات من مساحات شاسعة أيضا من ذلك نجد "500 هكتارا لملجأ قسنطينة (قائمة)، 55 هكتارا لملجأ وهران (مسرخين)"⁽⁷⁰⁾، وهو الملجأ الذي أقامه الأسقف "بافي" بمساعدة القس "كليمون" و"كروزا"⁽⁷¹⁾، كما أنّه كان للملاجئين اللذين أنشأهما الأب بريمولت - (Brumault) ببوفاريك وبين عكنون في سنة 1843، بمبادرة من الأسقف ديبيش (Dupuch) مساحات شاسعة، فقد استفاد ملجأ "بوفاريك" من أربعة هكتارات،

وكان لملجأ ابن عكنون 100 هكتارا منها 04 هكتارات أشجار مثمرة، و17 هكتارا من الكروم.⁽⁷²⁾

ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية هي فقط المستفيدة من تلك الأراضي التي سلبت ونهبت من الجزائريين، بل أنّ الكنيسة البروتستانتية "رغم نقص عدد أفرادها وسوء تنظيمها"⁽⁷³⁾، كان لها كذلك نصيبها من تلك الأراضي.

ففي سنة 1852 استفاد الملجأ البروتستانتي من موقع المعسكر القديم "لدالي إبراهيم" بعد التنازل عليه من طرف الإدارة الاستعمارية دون أي مقابل، وكان عبارة عن مباني وبعض الهكتارات من الأراضي.⁽⁷⁴⁾

إنّ هذه الأرقام تعبر عن التواطؤ الكبير بين الكنيسة والإدارة الاستعمارية لخدمة السياسة الاستعمارية الاستيطانية، فهي من جهة تساعد على التعمير، ومن جهة أخرى تخدم الكنيسة في مخططاتها التنصيري، فهناك عدد كبير من الجمعيات التي كانت تستخدم كسب الأراضي كوسيلة للتنصير، وبمساعدة السلطات الفرنسية سواء كانت عسكرية أو مدنية، وخير دليل على ذلك فرقة "الإخوة لاتراب"، التي كان لها منهجها الخاص في التنصير، وذلك من خلال كسب الأراضي الزراعية وفلاحتها، فاستقرت هذه الفرقة بمدينة اسطاوالي، وقد أخذت 1020 هكتارا من أحسن الأراضي الساحلية بسهل اسطاوالي.

ويبدو منذ البداية أنّ هذه الفرقة الدينية (لاتراب) جاءت إلى الجزائر من أجل "الفلاحة والعمل في الأرض"⁽⁷⁵⁾، وأنّ السلطات الاستعمارية عمدت إلى جلب مثل هذه الفرقة لكي تكون مثالا حسنا يشجع على التعمير. فقد قام الجنرال "دوفيقي" بنشر رسالة خصص معظمها لنظام "بيجو" في التعمير العسكري، وأعرب فيها عن ارتياحه لاستقرار طائفة "لاتراب" بالجزائر [...] فيقول: «لقد أرسلنا الإخوة لاتراب إلى إفريقيا لتفليح الأرض فيها، وهي فكرة جيدة لأنهم سيكونون

قدوة حسنة للفرنسيين بعدما نذروا أنفسهم للعمل والانضباط والكفاف من العيش...".⁽⁷⁶⁾

لا يخفى علينا أنّ حيازة الأراضي للمؤسسة الدينية المسيحية في الجزائر ليس فقط من أجل استخدامها كوسيلة من وسائل التبشير والتنصير، ولكن كان لها دور آخر يتمثل في الاستيطان والعمل على مساعدة الإدارة الاستعمارية في عملية التعمير.

2-3: المساهمة في تشكيل المستوطنات

تجدر بنا الإشارة إلى أنّ الجمعيات التي استقدمت إلى الجزائر، يمكن اعتبارها في حد ذاتها عنصرا استيطانيا بالدرجة الأولى، فقد راحت هذه الجمعيات تتوافد على الجزائر مباشرة بعد الاحتلال، كما أنّ بعد إنشاء الأسقفية قام الأساقفة باستدعاء عدة جمعيات مثل العازبين (Les Lazaristes)، الذين استقدموا إلى الجزائر من طرف الأسقف ديبيش (Dupuch) عام 1843، وكذلك الأمر بالنسبة لليسوعي (Les Jésuites)، الذين قدموا إلى الجزائر وتمركزوا بها سنة 1840.⁽⁷⁷⁾

ومن الجمعيات الدينية المسيحية التي كان لأعضائها انتشار في الجزائر أيضا جمعية "ميلد ماي" البروتستانتية، وهي جمعية إنجليزية يعمل أعضاؤها على نشر المذهب البروتستانتي بين الجزائريين، وقد تمركزت في الجزائر العاصمة، شرشال، أقبو (بوعني)، جمعية الصهاريج، أزفون، عزازقة، تلمسان، معسكر، مستغانم، قسنطينة.

-وفي نظرنا- أنّ هذه الجمعيات التي توافدت إلى الجزائر، ورغم اختلاف مذاهبها الدينية المسيحية بين كاثوليك وبروتستانت، إلا أنّهم كانوا كلهم يصبون في قالب واحد وهو الاستيطان بغية تسهيل عملية التنصير وتمسيح الوسط الجزائري، واقتلاع أفراد من جذورهم العربية الإسلامية، وهذا كله يعتبر تعزيزا للاستعمار وللسياسة الاستيطانية الفرنسية بالجزائر.

لقد بدأ اهتمام المؤسسة الدينية المسيحية بسياسة التعمير والاستيطان منذ بداية الاحتلال، حيث تيمت عدد كبير من الأطفال الأوروبيين خلال الفترة الممتدة ما بين 1830 و1850، وكان يرجع ذلك إلى:

- هلاك الوالدين نتيجة عدم القدرة على التأقلم مع مناخ الجزائر.

- هلاك الكثير من العسكريين في ساحات القتال.

- انفصال الوالدين بعد زواج غير شرعي.

ونتيجة لذلك وجدت الجمعيات التنصيرية الأرضية الخصبة لتنفيذ مشروعها الاستيطاني، بعد أن أوكلت سلطات الاحتلال بأمر تربية هؤلاء اليتامى الأوروبيين ليصبحوا معمرين.⁽⁷⁸⁾

في الحقيقة أنّ الجمعيات التنصيرية لم تشرع في مخططها الاستيطاني إلا بعد أن أصبح للكنيسة مؤسسة خاصة بها، وعملت هذه الأخيرة على حياة أكبر قدر ممكن من الأراضي الفلاحية بعد أن انتزعت من أهلها. ففي سنة 1852 تم انشاء ملجأ بروتستانتي الذي أقيم في مكان المعسكر القديم "لدالي إبراهيم"، وقد تكفلت هذه الجمعية البروتستانتية بتربية 109 طفل أوروبي كان من بينهم 55 فرنسي، 28 ألماني، 19 سويسري.⁽⁷⁹⁾

كما أنّ المؤسسة الكنسية لم تنحصر على تربية الأيتام الأوروبيين في الجزائر، بل عملت على استقدام اليتامى من فرنسا، على أن تضمن سلطات الاحتلال لكل يتيم يود الاستقرار بالجزائر ملكية من 04 إلى 06 هكتارات⁽⁸⁰⁾، وفي المقابل أن تضمن المؤسسة الكنسية تربيتهم وتعليمهم الحرف الفلاحية ليصبح هؤلاء معمرين في المستقبل.

ولهذا الغرض سخرت المؤسسة الدينية مدارس لتعليم تقنيات الفلاحة، حتى وإن كان تعليمها موجها للجزائريين، إلا أنّ الهدف

الحقيقي من ذلك هو مساعدة المستوطنين الفرنسيين على استخدام اليد العاملة بأجور رخيصة.⁸¹

لكن مؤسسة الكنيسة في عهد لافيجري عرفت حركة استيطان كبير، حيث شهدت فترة حكمه إخماد ثورة المقراني سنة 1871 حيث صادرت سلطات الاحتلال ما يقرب 500 ألف هكتار للأهالي الجزائريين طبقا للقوانين التعسفية التي فرضتها فرنسا على الجزائريين، وبهذا انتهز لافيجري الفرصة بالتنسيق مع الإدارة الفرنسية، ووجه نداء لسكان منطقة الألزاس (Alsace) الفارين إثر الاحتلال الألماني للمجء إلى الجزائر وتعميرها.⁽⁸²⁾

مما لا شك فيه أنّ هذا التداخل بين سلطة الاحتلال والكنيسة يعكس النظرة المشتركة بينهم حول الاستيطان، فنظرتهم للمعمر نظرة اعتبار وتقدير على عكس الجزائري فهي نظرة احتقار، وحجتهم في ذلك حسب زعمهم أنّ الجزائر كانت متخلفة ومعظم مساحاتها قاحلة، والمعمر هو الذي أثبت أنّه بإمكانها أن تنتج الكثير من الخيرات، وبهذا فإنّ المعمر بذكائه ونشاطه استطاع أن يمنح حياة جديدة للجزائر، وقد أكّد على هذه الفكرة السيد جيرو (Acirant) فقال: «إنّ المعمر كان مدركا ومقتنعا بوضعية الجزائريين التعيسة، ولذلك وضع على كاهله مهمة إحياء الأراضي، وتحسين أوضاعهم بتوفير العمل لهم في مزارعه ومصانعهم»⁽⁸³⁾، متغافلا بذلك العوامل والظروف التي أدت بهم إلى أن أصبح الجزائري مجرد عامل أجير، والمعمر سيّدا ومالكا، وكان ذلك كلّه على حساب الجزائريين الذين حرّموا من كل شيء ماديا ومعنويا.

- الخاتمة

لقد توصلنا من هذا المقال إلى استخلاص النتائج التالية:

- أنّ للكنيسة علاقة بالإدارة الاستعمارية، فأغلب المنصرين يربطون الاستعمار بالتبشير، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين.

- أوجدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية للحركات التنصيرية الميادين الفسيحة لأداء نشاطها التنصيري، بالإعانات المادية والمعنوية، وغالبا ما اعتمدت الإدارة الاستعمارية على رجال الدين، لما يمتازون به من طرق وأساليب خاصة ساعدت في بثّ النفوذ السياسي والاقتصادي في الجزائر.

- أنّ موقف السلطة الفرنسية من المنصرين كان متضاربا، بحيث كانت تعارض التنصير علنيا خشية انتفاضة السكان، وتشجيعه سرا لتدعيم نفوذها في الجزائر، قد عرفت شكلا أوسع في عهد النظام المدني، لاسيما بعد تأسيس جمعية الآباء البيض.

- أنّ الجمعيات التنصيرية بالجزائر، كانت تهدف إلى خلق النعمة القبلية بين السكان واتباع سياسة فرق تسد، ليسهل التوغل الفرنسي، ولكنهم فشلوا في هذه المهمة.

- أنيط للحركات التنصيرية دورين؛ الأول خدمة الأرض واستغلالها من أجل الاستعمار، والثاني، أداء نفس المهمة من أجل التنصير، وكلا الدورين في الواقع مرتبط بالآخر، ما دام يعملان من أجل المصلحة السياسية والاقتصادية للمستعمر.

- أنّ الكنيسة بصفة عامة من خلال الجمعيات التنصيرية، قد فشلت في تنفيذ مخططاتها أمام صمود الجزائريين وتمسكهم بدينهم وهويتهم الوطنية.

- قائمة المراجع

أ/ بالعربية

- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1904)، ج6، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1998.
- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1860-1900)، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1999.
- محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر (1830-1904)، دراسة تحليلية، مطبعة دحلب الجزائر، د ت.
- مصطفى الاشرف: الجزائر الامة والمجتمع، تر حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983.
- اجرون شارل رويير: تاريخ الجزائر المعاصرة، تر عيسى عصفور، ط1، بيروت، 1982.
- خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، مطبعة دحلب، د ت.
- صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من الفينيقيين الى خروج الفرنسيين (814 ق.م-1962م)، دار العلوم، عنابة، 2003.
- عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1975.
- محمد الطاهر عزوي: الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، دار الهدى عين مليلة الجزائر، د ت.

ب/ الفرنسية

- Ageron Charles Robert : les Algériens musulmans et la France (1871-1919). T1, Presses Universitaires de France. France 1968.
- Annie Rey : Goldzeiguer le royaume arabe sned. Paris, France 1977
- Tournie Julles. La conquête religieuse de l'Algérie, 1830-1845. : Librairie Plon. Paris 1930
- Charles Lavigerie : LETTRE. DE MGR L'ARCHEVÊQUE D'ALGER Aux Bureaux Del oeuvre des ecoles D'orient. Paris. 1880.

ج/ الرسائل

- الطاهر عمري: دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار الفرنسي (1900-1830)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، 1999.
- الطاهر عمري: النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع (1900-1954)، شهادة الدكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004.
- مقران يسلي: الحركة الدينية والاصلاحية في منطقة القبائل (1920-1954)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد الفلسفة، 1991.

د/ المجلات

- إبراهيم مياشي: الاستيطان الفرنسي في الجزائر، مجلة المصادر، ع5، صيف 2001.
- محمد بالرابح: المنطلقات اللاهوتية الجديدة في عمل التنصير، مجلة الأمير عبد القادر، 2000.
- يحيى بوعزيز: سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر من خلال اقواله ورسائله 1852-1870، مجلة الثقافة، افريل 1979.

هـ / المواقع

- عبد الرحيم الجزائر: تاريخ التنصير في الجزائر، شواهد وحقائق 1-2
www.drjoezaph.com 25- 12-2016
- سياسة التبشير في الجزائر
www.Algeria_voice.org 20- 12-2016.

- الهوامش

-
- 1: محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر (1830-1904)، دراسة تحليلية، مطبعة دحلبي الجزائر، د ت، ص 45.
 - 2: Annie Rey: Goldzeiguer le royaume arabe sned. Paris, France 1977, P94.
 - 3: محمد الطاهر وعلي: المرجع نفسه، ص 45.
 - 4: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، مطبعة دحلبي، د ت، ص 22.
 - 5: نفسه، ص 55.
 - 6 : نفسه، ص 50.
 - 7: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص 46.
 - 8: خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 62.
 - 9: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص 46.
 - 10 : Tournie Julles. La conquête religieuse de l'Algérie, 1830-1845. : Librairie Plon. Paris 1930, P 212.
 - 11: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1860-1900)، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي بيروت 2000، ص 401-402.
 - 12: أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 405.
 - 13: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق. ص 49.
 - 14: سياسة التبشير في الجزائر www.Algeria_voice.org 20- 12-2016

- 15: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1904)، ج6، ط1، دار الغرب الإسلامي الجزائر 1998، ص124.
- 16: صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من الفنيقيين الى خروج الفرنسيين (814 ق-م - 1962م)، دار العلوم عنابة 2003، ص220.
- 17: عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر 1999م، ص70.
- 18: سياسة التبشير في الجزائر الموقع السابق.
- 19: اجرون شارل روير: تاريخ الجزائر المعاصرة، تر عيسى عصفور، ط 1، بيروت، 1982، ص108.
- 20: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص49.
- 21: Ageron Charles Robert: les Algériens musulmans et la France (1871-1919). T1, Presses Universitaires de France. France 1968. P.305.
- 22: نيكول زن: صاحب المنطلقات اللاهوتية الجديدة لتنصير المسلمين: انظر محمد بالرواج: المنطلقات اللاهوتية الجديدة في عمل التنصير، مجلة الأمير عبد القادر، 2000، ص213.
- 23: المرجع نفسه، ص214.
- 24: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص49.
- 25: سياسة التبشير في الجزائر، الموقع السابق.
- 26: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص132.
- 27: جول فيري (Jules Fery) 1832-1892 ولد في سان ديني رجل سياسي فرنسي اعتبر من أحد أكبر المؤثرين في السياسة الفرنسية. للمزيد انظر الطاهر عمري: النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع (1900-1954)، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، 2003-2004، ص72.
- 28: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص50.
- 29: عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962). ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1975، ص144.
- 30: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص94.
- 31: أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص132.
- 32: عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص68.
- 33: نفسه، ص63.

- 34: عبد الرحيم الجزائر: تاريخ التنصير في الجزائر، شواهد وحقائق 1-2
www.drjoezaph.com 25-12-2016
- 35: الطاهر عمري: دور بني المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار 1830-1871، المرجع السابق، ص90.
- 36: عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص62.
- 37: عمار هلال: المرجع السابق، ص122.
- 38: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص73.
- 39: نفسه، ص42.
- 40: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص16.
- 41: عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص69.
- 42: نفسه، ص70.
304. 43: Ageron. char, pct.
- 44: عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص73.
- 45: المدارس الاهلية هي التي تعرف بالمدارس العربية الفرنسية انشأتها سلطات الاحتلال، في بعض المدن الجزائرية، وقد تكونت هذه المدارس من قسم واحد أي حجرة واحدة للتعليم كان يتداول عليها معلمان أحدهما للعربية وهو جزائري، والآخر فرنسي لتعليم اللغة الفرنسية: للمزيد انظر: عمار هلال: المرجع السابق، ص112.
- 46: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص224.
305. 47: Ageron.ch., op.cit.
- 48: أسس لافيغري مراكز للتنصير في منتصف الطرق الموصلة التي تربط المدن على نمط "الزوايا الإسلامية" كما فعل في مدينة بسكرة واطلق عليها "بيت الله" انظر: محمد الطاهر عزوي: الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ص87.
- 49: عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص71.
- 50: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص90.
- 51: سياسة التبشير في الجزائر، الموقع السابق.
- 52: الطاهر عمري: المرجع السابق، ص92.
- 53: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص109.
- Charles Lavigerie : LETTRE. DE MGR L'ARCHEVÊQUE D'ALGER Aux Bureaux Del oeuvre des ecoles D'orient Paris. 1880.P5.:54
- 55: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص109.

- 56: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص35.
- 57: خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص61.
- 58: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص109.
- 59: Annie Rey: Goldzeiguer.op. cit. P96.
- 60: Charles Lavigerie,op. cit. P 5.
- 61 : ibid. 10.
- 62 : ibid. 9.
- 63: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص91.
- 64: نفسه، ص71.
- 65: مصطفى الاشرف: الجزائر الامة والمجتمع، تر حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983، ص14.
- 66: إبراهيم مياسي: الاستيطان الفرنسي في الجزائر، مجلة المصادر، ع 5، صيف 2001، ص114.
- 67: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص44.
- 68: مصطفى الاشرف: المرجع السابق، ص275.
- 69: يحيى بوعزيز: سياسة نابليون الثالث تجاه الجزائر من خلال اقواله ورسائله 1852-1870، مجلة الثقافة افريل 1979، ص17.
- 70: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص52.
- 71: أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص404.
- 72: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص52-53.
- 73: Annie Rey: Goldzeiguer.op. cit. P98.
- 74 : ibid. P98.
- 75: الطاهر عمري : المرجع السابق، ص92.
- 76: مصطفى الاشرف: المرجع السابق، ص277.
- 77: خديجة بقطاش: المرجع السابق، ص60.
- 78: نفسه، ص60.
- 79: Annie Rey: Goldzeiguer.op. cit. P98.
- 80: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص53.
- 81: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص117.
- 82: محمد الطاهر وعلي: المرجع السابق، ص54.
- 83: يسلي مقران: المرجع السابق، ص121.